# واقع ومستقبل الكتابة والتأليف باللغة العربية


## د. عفاف البطاينة[1]


تصنّف اللسانيات عموماً إلى ثلاثة حقول فرعية: البنية اللغوية، ومعنى اللغة، واللغة في سياقاتها. فيدرس الحقل الأول البناء اللغوي، أو ما يشار إليه عادة بالنحو، ويركز بشكل خاص على نظام القواعد أو القوانين التي يتبعها المتحدث للغة ما. ويشتمل هذا الحقل على الصرف، أي تركيب وبناء الكلمات؛ التركيب، أي بناء العبارات والجمل من هذه الكلمات؛ والصوتيات، أي نظام الأصوات. أما الحقل الثاني، معنى اللغة، فينشغل بالكيفية التي توظِّف بها اللغات البنيات المنطقية والإحالات إلى العالم الحقيقي كي تنقل، وتعالج وتحدد المعنى. يشمل هذا المجال علم الدلالة، أو كيفية الاستدلال على المعنى من الكلمات والمفاهيم؛ والبراغماتية، أي كيفية الاستدلال على المعنى من السياق. أما الحقل الفرعي الثالث، اللغة في سياقاتها، فيشمل اللسانيات التطورية التي تعنى بأصل اللغة؛ واللسانيات التاريخية التي تدرس تغيّرات اللغة؛ واللسانيات الاجتماعية التي تبحث في علاقة التنويعات اللغوية بالبناء الاجتماعي؛ واللسانيات النفسية التي تدرس تمثيلات ووظائف اللغة في الذهن؛ واللسانيات العقلية التي تدرس معالجة اللغة في العقل؛ واكتساب اللغة التي تختص بالكيفية التي بها يكتسب الأطفال والراشدون اللغة؛ وأخيراً تحليل الخطاب الذي يدرس بنية النص والحديث.

وبالرغم من أن فروع اللسانيات كلها قد تطوّرت بشكل كبير خلال العقود الماضية، إلا أنّ حضورها في الدراسات العربية ما يزال هامشياً. فالكتب التي تنتشر في مجال اللسانيات، بالرغم من محدودية أعدادها، إما أن تكون تطبيقية، أي تلجأ إلى النظريات الغربية وتحاول تطبيقها على اللغة العربية، بنجاح يتفاوت من عمل لآخر، أو أن تكون نظرية بحتة لا تقدّم للباحث والمهتم والمطلع على النظريات في لغاتها الأم معرفة جديدة. إضافة إلى ذلك، فإن اللسانيات كعلم حديث النشأة، أوجد بين الباحثين العرب تفاوتاً ليس فقط في استخدام المصطلحات التي تشير إلى ذات المفاهيم، بل وقصوراً في تعريف الظاهرة اللغوية التي يحيل إليها المصطلح.

---


[1] أستاذ مساعد، جامعة زايد، دبي، الإمارات العربية المتحدة

ونتيجة لذلك، فإن دراسة اللغة العربية اليوم وتدريسها، سواء ارتبط ذلك بتوصيف اللغة ذاتها، أو بنائها النحوي والتركيبي والصوتي، أو معانيها ودلالتها وسياقاتها المختلفة، أو التغيّرات التي طرأت على معاجمها واستخداماتها في جميع المجالات، أو لهجاتها وتنويعاتها الكثيرة، أو كيفية اكتسابها وتدريسها، أو مناهج التحليل المرتبطة بالنصوص المكتوبة باللغة العربية، تعاني، في معظمها، من ضعف وهشاشة وتشويه من جانب، ومن تقليدية ورؤية لا عصرية لكل ما يتصل باللغة العربية من جانب آخر.

لهذه الأسباب وغيرها، نجد أن اللغة العربية اليوم باتت لغة ثانوية من حيث الاستعمال والتجدد والإتقان، ولا يجيد استخدامها استخداماً معاصراً وإبداعياً وسليماً إلا قلة قليلة. فالأعداد الكبيرة التي تستعمل اللغة العربية لأغراض تواصلية يومية، كتابة أو شفاهة، يهمها بالدرجة الأولى تقديم خبر أو معلومة أو رسالة أو فكرة بأبسط وأيسر الطرق، دون أن تكون للغة التي يستخدمونها مستويات تعبيرية أخرى. وبذلك تصبح اللغة العربية وسيلة تواصل مباشر وبسيط، تتكرر مفرداتها وتراكيبها في البيئة الواحدة بعيداً عن التجدد. ولأن اللغة تصبح ذات بعد اجتماعي عملي بأثر هذه الممارسات، فإن مفهوم الإتقان يصبح مرتبطاً بإجادة ما يتطلبه السياق بغض النظر عن متطلبات اللغة ذاتها.

من جانب آخر، يتولى الكتّاب العرب، شعراء وروائيون وباحثون، مسؤولية التجديد في النسيج اللغوي من خلال كتاباتهم، مقدمين بذلك صيغة مشرقة لإمكانيات اللغة العربية عند من يمتلك مفاتيح جمالها التي تؤهله للإبحار بين مستوياتها وأعماقها واحتمالاتها غير المتناهية، مضيفين إلى معاجمها ومفرداتها وتراكيبها وفكرها وأساليبها الكثير، لكنه الكثير الذي يبقى محصوراً ضمن فئة نخبوية محدودة ولا يعم مستخدمي اللغة جميعاً حتى المختصين.

ومع ذلك، تعاني كثير من منشورات المثقفين العرب الرائدين لغوياً خللاً لا يخفى على أحد. فالمنشورات العربية كثيراً ما تصل إلى الأسواق وفيها من التشوهات اللغوية ما تمقته العين والذائقة الجمالية. وهذه مسؤولية لا يتحملها الكاتب فقط، بل وتتحملها دور النشر بالدرجة الأولى. ولكن الإشكالية اليوم، أن معظم دور النشر العربية تنظر إلى عملية التحرير وكأنها قضية تصحيح إملاء ونحو، مع أنها في الحقيقة عملية معقدة مشتركة بين الكاتب والمحقق، تشمل مراجعة المحتوى الفكري، والجوانب الأسلوبية، إضافة إلى الدقة والسلامة اللغوية والتركيبية والنحوية والصرفية، ناهيك عن عملية إخراج الكتاب في صورته النهائية.

وإن كانت أفضل وسيلة لتعلّم اللغة هي قراءة نصوص بتلك اللغة، فماذا يحدث لأبناء العربية الذين يجدون أنفسهم أمام كتب لا تحترم اللغة التي بها كتبت؟ والأخطر، أن القارئ العربي بات يجد في الأخطاء، على مختلف مستوياتها، أمراً مقبولاً لا تأباه الذائقة اللغوية ولا الجمالية ولا الفكرية، وبذلك تتراجع اللغة العربية إلى مجرد أداة تواصل مخلوعة عنها كل أثوابها التي أكسبتها عبر القرون قوتها وصلابتها.

إضافة إلى ذلك، يجد أبناء العربية اليوم صعوبة في إتقانها وتوظيفها لأغراض أكاديمية تتطلب مستويات متقدمة من التفكير والتحليل والصرف في كثير من الأحيان، بل ويعجزون عن توظيفها في المجالات المهنية والعملية، مثل إدارة الأعمال والمعلوماتية، نظراً لغياب المصطلحات والمفاهيم والتراكيب المتوافقة مع معطيات الحاضر، بل ويجد متحدثو العربية ممن يتقنون لساناً آخر صعوبة في تعلّم أنظمتها، ظناً منهم أن تعلّم اللغة العربية يعني حفظ قواعد النحو والصرف، فيفضلون لغات أخرى على العربية اعتقاداً منهم بأن اللغات الأخرى أيسر وأسهل.

بناء على ما سبق، تحاول هذه الورقة طرح الإشكاليات التي تواجه توظيف اللغة العربية اليوم في المجال الأكاديمي، مستفيدة من حيث المنهج بنظريات اللسانيات الحديثة، وطرق تحليل الخطاب، وأساليب بناء وتفكيك النص. وستناقش الورقة بشكل خاص مستوى الكتابة العربية اليوم، ليس بين عينة من طلاب الجامعات فقط، بل ومن خلال نصوص فكرية وأدبية منشورة. ستدرس الورقة بالتحديد الكتابة كعملية، أي إجراءات ما قبل الكتابة من تخطيط وترتيب وإعداد، وإجراءات الكتابة للنسخ الأولية والنهائية، وإجراءات ما بعد الكتابة التي تشمل التحرير والتدقيق والمراجعة. وستستند الورقة في توضيح هذه الإجراءات إلى الممارسات العالمية في التأليف، والمعايير الدولية للنشر. ستقوم الورقة كذلك، بعقد مقارنة بين كيفية تدريس اللغة، خاصة الكتابة، في الجامعات الغربية ومثيلاتها العربية، وستكون مخرجات التعليم المستهدفة وآليات تحقيقها محور المقارنة.